مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN: 1071-2335/ E-ISSN: 2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
Journal Vol 08, N° 02, Juin 2020, Version N°30, pp 27-39

تاريخ الاستلام (2020/03/17) تاريخ القبول (2020/04/21) تاريخ النشر (2020/06/30)

الإبدال التركيبي في متشابه القرآن، مفهومه وقيمته اللغوية

The Syntactic Substitution in the Qur'an Similarity, its Concept and Linguistic Value

الطالب الباحث: قاسمي محمد
جامعة وهران.أحمد بن بلة. 1 kasmid0131@hotmail.com

ملخص:

يتناول البحث ظاهرة الإبدال في متشابه القرآن، ذلك أن المتشابه اللفظي في القرآن يكاد يشغل ثلثي القرآن، وما من تشابه إلا ويختلف عن مشابهه في الآي من زوايا مختلفة: حرف، اسم، فعل، تركيب، وفي هذا البحث حاولت الوقوف عند تحديد مصطلح (الإبدال) ومفهومه، ثم التعرض لبعض النماذج التي من خلالها يتضح الأثر اللغوي لدراسة الإبدال وأنواعه، وما الدور الذي يمكن أن يسهم به في الدرس اللغوي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الإبدال، المتشابه، القرآن، اللغة، السياق.

Abstract:

The research deals with the phenomenon of replacement/ substitution in the similarity of the Qur'an, because the verbal similarity in the Qur'an almost occupies two-thirds of the Holy Book; Qur'an, and there is no similarity except with similarities in the verse from different angles: letter, name, verb and syntax. In this research, I tried to find out the term substitution and its concept, then exposure to some models through which

المؤلف المرسل: قاسمي محمد، الإيميل: kasmid0131@hotmail.com

the linguistic effect of the study of substitution and its types is clear, and what role can it contribute to the contemporary linguistic lesson.
Keywords:
Substitution, similarity, Quran, language, context

---

1. مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه الكريم، وعلى آله وصحابته الطيبين أزكى الصلوات وأتم التسليم. وبعد:

من مميزات وخصائص القرآن الكريم أنه كتاب كريم معطاء، لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد، يتراءى لكل جيل بحلله المعرفية في الأنفس والآفاق، ولم يزل شغل العلماء واهتمامهم منصبا عليه، رجاء استكشاف علومه وفنونه ووجوه إعجازه، فألفت من أجل ذلك مؤلفات كثيرة، والمكتبة الإسلامية تزخر بذلك الكم الهائل من التصانيف في التفسير والغريب والبلاغة والبيان وعلوم القرآن، والتي تدل على عمق عناية المسلمين بكتاب الله ودراسته، وليس بدعا من القول أن يقال: إن الأساليب البيانية للقرآن الكريم نالت حظا كبيرا، ونصيبا أوفر من اهتمامات العلماء، فهذا من المتفق عليه، لأن محور إعجاز القرآن الكريم في وجوه إعجازه هو البيان، ولكن لا تزال هناك أساليب قرآنية لم تأخذ حقها من الدراسة والوضوح والتصنيف، ومن هذه الأساليب: أسلوب الإبدال في الآيات القرآنية المتشابهة، هذا الأسلوب يعتبر ظاهرة عامة في القرآن، ذكره العلماء في ثنايا كتبهم، وفي تعرضهم لإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، لكن لا تجد في القديم ولا في الحديث من درس هذا الأسلوب القرآني دراسة مستقلة، بل ربما يستغرب هذا المصطلح كثير من الباحثين والدارسين، فمصطلح الإبدال في عرف الدراسات اللغوية موضوع نحوي يتعلق بالتراكيب النحوية عند الحديث عن البدل بأنواعه المختلفة، ويتعلق بالمسائل الصرفية المرتبطة بتغيرات حروف الكلمة، إبدالا أو إعلالا، أما الإبدال الذي هو أسلوب من أساليب القرآن فيختلف تماما عن سابقيه، لذلك يتسم هذا الموضوع بالجدة، لا في اختراع المصطلح، بل في جمع متفرقاته، وتصنيف مسائله، وعرضه كموضوع مستقل، وفي هذه الدراسة المختصرة لهذا الموضوع سنحاول وضع تصور عام لهذا الأسلوب القرآني، وسنسوق

الأدلة التي تؤكد على وجوده وأحقيته في الوجود، وذلك من خلال تتبعه في مصنفات بعض العلماء المشتغلين بعلوم القرآن، ثم وضع تعريف عام لمصطلح (الإبدال) من خلال فهمهم، ثم الاستشهاد على ذلك ببعض النماذج التطبيقية من القرآن الكريم التي تؤكد أن أسلوب الإبدال ظاهرة قرآنية، له وجوه مختلفة، وصور متنوعة، جديرة بأن تدرس وتجمع وتصنف تحت عنوان واحد مستقل، وهو: أسلوب الإبدال في القرآن الكريم، وهذه الخطوة ما هي إلا مساهمة متواضعة في وضع لبنة في قواعد هذه الموضوعات الأسلوبية القرآنية، التي نعتقد بأنها لا تزال تحتاج إلى دراسة وبحث وتصنيف.

2. مفهوم مصطلح الإبدال في الدرس القرآني:

للوقوف على مفهوم مصطلح (الإبدال) في الدرس القرآني، يجب أن نعود به إلى أصله الذي تفرع عنه، ومصدره الذي انبثق منه، ذلك أن مصطلح الإبدال عند علماء القرآن ذكر مدرجا تحت موضوعات " المتشابه اللفظي " الذي يعتبره الزركشي (794هـ) في كتابه " البرهان في علوم القرآن " النوع الخامس من علوم القرآن [(1)]، كما ذكره السيوطي (911هـ) في كتابه " الإتقان " وعده وجها من وجوه الإعجاز [(2)]، وقد أوضح ذلك في كتابه " معترك الأقران " بقوله: " الوجه السادس من وجوه إعجازه: مشتبهات آياته... " [(3)]، فتحت هذا العنوان اندرج مصطلح الإبدال، ونجده جليا صريحا في تقسيم المتشابه عند الكرماني (505هـ) من خلال مقدمة كتابه " البرهان في متشابه القرآن " الذي استفتحه بقوله: " فإن هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن الكريم وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، **أو إبدال حرف مكان حرف**. " [(4)]؛ وكذلك نجده عند ابن الجوزي (597هـ)، فقد عقد بابا للإبدال في كتابه " فنون الأفنان " بعنوان: **باب إبدال كلمة بكلمة أو حرف بحرف من المتشابه**، وبين صورته بما وقع فيه الاختلاف بسبب إبدال كلمة بكلمة أو حرف بحرف. [(5)]

وقد ذكره كذلك " الخطيب الإسكافي (420هـ) في كتابه " درة التنزيل وغرة التأويل " [6]، وابن الزبير الغرناطي (708 هـ) في كتابه " ملاك التأويل " [7]، وبدر الدين بن جماعة (733هـ) في كتابه " كشف المعاني عن متشابه المثاني " [8] وغيرهم.

فالمصطلح إذا معلوم في كتب الأقدمين، إلا أن القصد إلى وضعه كمصطلح، أو عرض مسائله كموضوع مستقل لم يكن في اهتمامهم، بدليل أن التطرق إليه لم يكن سوى إشارات مختصرة لبعض النماذج الدالة في إيجازها على اعتبار الإبدال قسما من أقسام المتشابه؛ فإذا تأكد لنا وجود هذا المصطلح، وأدركنا الحقل الذي ينتمي إليه، إذا فما معنى الإبدال عند علماء القرآن؟ وما هي وجوهه؟ ، وقبل معرفة ذلك يجدر بنا أن نعرج على معنى الإبدال في اللغة العربية ولغة القرآن الكريم.

1.2 . تعريف الإبدال:

الإبدال لغة: هو: التغيير والتحويل، سواء أكان هذا التغيير حسيا أم معنويا، وسواء أكان في الصورة أم في الجوهر؛ يقول ابن منظور: " يقال: أبدلت الخاتم بالحلقة إذا نحيت هذا وجعلت هذا مكانه ـ إفناء الذات الأولى وإحداث ذات أخرى ـ وبدلت الخاتم بالحلقة إذا أذبته وسويته حلقة ـ تغيير الشيء مع بقاء عينه ـ قال: وحقيقته أن التبديل تغيير الصورة إلى صورة أخرى، والجوهرة بعينها. والإبدال تنحية الجوهرة واستئناف جوهرة أخرى. " [9]

وقد ورد في القرآن الكريم في سياقات مختلفة كلها تدل على التغيير والتحويل، يقول الراغب الأصفهاني: " الإبدال والتبديل والتبدل والاستبدال: جعل شيء مكان آخر... والتبديل قد يقال للتغيير مطلقا وإن لم يأت ببدل، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ البقرة: 59. وقوله: ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾ البقرة: 181. وقوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ النحل: 101.... وقوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ إبراهيم: 48. وقوله: ﴿ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ التوبة: 39". [10]

والإبدال في الدراسات القرآنية: هو قسم من أقسام المتشابه اللفظي، ومجاله الآيات المتشابهة في القرآن الكريم، التي تتفق في أغلب مكوناتها، وتختلف في

حرف أو كلمة، ويعني: إحلال حرف مكان حرف أو كلمة مكان كلمة، بين آيتين وردتا بلفظ متشابه في الأغلب.

والإبدال أسلوب قرآني جلي، تتميز به أغلب سور القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ﴾ الزمر: 23.

2.2. وجوه الإبدال:

ينقسم الإبدال في القرآن الكريم ـ في نظرنا ـ إلى ثلاثة أقسام هي:

أ ـ الإبدال بين حروف المعاني، كحروف العطف والجر، وغيرهما، كالإبدال بين (الفاء، وثم) في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ الكهف: 75. وقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ السجدة: 22. وكالإبدال بين (إلى، وعلى) في قوله تعالى: ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلى إِبْرَاهِيمَ ﴾ البقرة: 136. وقوله:﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾آل عمران:84.

ب ـ الإبدال بين الأسماء أو الأفعال، كالإبدال بين (حية، وثعبان) وبين (انفجرت، وانبجست).

ج ـ الإبدال بين النوع الأول والثاني، كإبدال كلمة (خشية) بحرف الجر (من) في قوله تعالى: (من إملاق، خشية إملاق)، وهو في القرآن قليل جدا.

3.2. أهمية هذا الموضوع:

يعتبر الإبدال ظاهرة عامة في القرآن الكريم، لا يزال يحتاج إلى إحصاء وترتيب وتصنيف، نظرا لكثرته، وتبرز أهميته في إبراز أسرار القرآن وإعجازه، كما أنه مجال غني بالعطاء في مختلف مجالات الدراسات اللغوية، وذلك من خلال إبراز الفروق اللغوية والدلالية بين حروف المعاني، وبين المفردات المعجمية، وبيان شدة الارتباط بين مكونات الآية وسياقها وموضوعها وسورتها، وأثر الحرف والكلمة في البلاغة القرآنية، إلى غير ذلك من الموضوعات؛ يقول الدكتور أبو موسى: "... كأن هذا الفرع هو التطبيق الحي والحق لمنهج الشيخ عبد القاهر ـ يعني نظرية النظم ـ وقد تفلت من أيدي البلاغيين لأنهم انصرفوا إلى مدارسة تراث الشيخ في جانبه النظري، ولم يلتفتوا إلى المناحي التطبيقية لمنهجه... والقصص والحوادث التي تتكرر وتتكرر معها عناصر

كثيرة في الأسلوب بينهما فروق، ترتبط بالسياق ارتباطا بالغ الدقة والرفاهة، والكشف عنه يحتاج إلى مهارة ووعي، وإحاطة شاملة، وليس هناك أدخل في باب البلاغة العالية من مثل هذه البحوث... "(11)

هذا الكلام الرائع من " أبي موسى " يزيد رأينا تأكيدا على أهمية هذه المباحث القرآنية، وارتباطها الوثيق بالدراسات اللغوية والبلاغية، فهي المجال التطبيقي الذي يزيد فكرة النظم وضوحا وبيانا.

وأسلوب الإبدال في القرآن الكريم أحد هذه المجالات التطبيقية لنظرية النظم، فعندما نستعرض آيتين متفقتين في جميع مكوناتها، ومختلفتين في جزئية صغيرة (حرف /كلمة) فإنه قد تحدد بذلك موضع النظر في نظم الآيتين، وبالتالي يسهل على الباحث دراسة العلاقات الدلالية والسياقية، والفروق اللغوية الدقيقة بين المعاني والكلمات، ومن ثم الوصول إلى اكتشاف دقة النظم القرآني في استعمال اللغة، وروعة انتقائه للحرف والكلمة، إضافة إلى ما يضفيه كل حرف وكل كلمة من المعاني والتصورات الملائمة للموضع الذي استعملا فيه، بحيث لن يستطيع أحد أن يجد في اللغة العربية على اتساعها ما يقوم مقام ذلك الحرف أو تلك الكلمة، بل لو استبدلنا الحرف من آية إلى أختها لاختل النظم، وتهدمت تلك الدلالات والعلاقات؛ وبالمثال يتضح المقال.

3 . أمثلة تطبيقية:

1.3 . إبدال حرف مكان حرف:

قال تعالى: ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ...﴾ البقرة: 136. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ... ﴾ آل عمران: 84. وقع الإبدال في الآيتين بين (وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا)، وبين (وما أنزل علينا)، (إلينا /علينا).

. معنى الحرفين: (إلى) تفيد معنى الوصول والانتهاء دون تخصيص الجهة التي وصل منها الشيء، أما (على) فهي تفيد معنى الوصول من جهة واحدة (الاستعلاء).هذا

ما ذكره الاسكافي والكرماني وابن الزبير [12]، أما الزمخشري والرازي [13] فيرون أن في التعبيرين مغايرة أسلوبية فقط، فالرسل يأتيهم الوحي من علو ويصل إليهم من علو.

. علاقة الحرفين بالسورة ونظمها:

السؤال الذي يطرح: لماذا روعي في سورة البقرة التعدية ب (إلى) وفي سورة آل عمران التعدية ب (على) ؟.

الجواب: أن لكل حرف منهما علاقة سياقية بنظم السورة وجوها العام، وذلك للأدلة التالية:

أ. استفتاح السورتين: البقرة (الذين يؤمنون بما أنزل إليك)، آل عمران (نزل عليك الكتاب بالحق).

ب. التكرار: تكرر في سورة البقرة اقتران النزول ب (إلى) 4 مرات، وب (على) 2، أما في آل عمران فقد اقترن النزول ب (إلى) مرة واحدة، وب (على) 4 مرات، فالغالب في سورة البقرة (إلى) وفي آل عمران (على).

ج. سياق السورتين: إذا نظرنا إلى الأحكام الشرعية التي وردت في السورتين، باعتبار أن معنى (على) روعي فيه جهة التنزيل ومصدره، و (إلى) روعي فيه معنى وصول الوحي للعمل به، نجد أن سورة البقرة اشتملت على أغلب الأحكام الشرعية (تحويل القبلة، الصيام، الحج، الجهاد، البيع والربا والمداينة... الخ)، ولا نجد ذلك في سورة آل عمران.

والخلاصة: أن كل حرف جر منهما ارتبط بسياق السورة التي ورد فيها، وجاء إبدال حرف بحرف من نوعه تحقيقا للمناسبة الدلالية العامة لجو السورة، وفي ذلك بيان لسر تناسق نظم القرآن الذي جاء كل حرف فيه في مكانه المناسب له.

3 .2. إبدال اسم مكان اسم:

قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ النساء: 85.

أ ـ المعنى المعجمي للكلمتين: مفهوم الشفاعة: " الانضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى.

ومنه: الشَّفَاعَةُ في القيامة... وهي هنا بمعنى: من انضمّ إلى غيره وعاونه، وصار شَفْعاً له، أو شَفِيعاً في فعل الخير والشّرّ، فعاونه وقوّاه، وشاركه في نفعه وضرّه. "[14]

والنصيب هو: الحظ والحصة والسهم، وهو جزء من كل، كثر أم نقص.

والكفل هو: الحظ أيضا والنصيب والمثل، ولكن فيه معنى الكفالة، أي: التحمل والمسؤولية التي تقتضي بطبيعتها المحاسبة. [15]

ب ـ الحسنة والسيئة في السياق القرآني: يلخصها قوله تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ الأنعام: 160. والمعنى الكلي للحسنة أنها جزاء مضاعف، والسيئة جزاء محدود بالمثلية.

لذلك استعمل القرآن كلمة (نصيب) مع الحسنة، لأن الحسنة تضاعف، وللشفيع نصيب وحصة من فعل الخير، أما مع السيئة فتغير اللفظ من نصيب إلى كفل، وهذا الإبدال حقق انسجاما في النظم والمعنى، حيث أن التعبير ب (كفل) مع السيئة يصور لنا جزاء السيئة (المثلية)، وهو لها أنسب إضافة على ذلك تصوير بشاعة الفعل وما يترتب عليه من مسؤولية الحساب والعقاب؛ أما النصيب فجاء في سياق الحسنة ليصور لنا كثرة العطاء، وهو أولى بها وألصق وأمكن، وقد اشترك النصيب والكفل في معنى الحظ، ولكن كما يظهر هناك فروق لغوية تمنع القول بالترادف بين الكلمتين، ولغة القرآن لا تقر بالترادف، فكل كلمة استعملت في مكان لا يمكن أن تستبدل بكلمة وإن شاركتها في أصل المعنى.

3.3 ـ إبدال فعل مكان فعل:

قال تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ النساء: 89. وقال سبحانه: ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّواْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ النساء: 91. أبدل في الآيتين الكريمتين: الفعل (وجد) بالفعل

(ثقِف)، وهذان الفعلان يشتركان في أصل المعنى وهو (العثور على الشيء والتمكن منه) ولكن بلا شك أن لكل فعل خصائصه ومميزاته، وهذا ما سنتبينه من خلال:

أ ـ المعنى المعجمي للفعلين: فالفعل (وجد) فعل مبهم لا يتعين إلا بإرجاعه إلى أصله ومصدره، " نقول: وَجَد وهي كلمة مُبْهمة فإذا صُرفت أفصحت، فقلت في المال: وجْدا، وفي الضالة: وِجدانا (ووجودا)، وفي الغضب: مَوْجِدَةً، وفي الحُزْن: وَجْداً.. " [16] وأما (ثقف) فهو من " ثَقُفَ، ككَرُمَ وفَرِحَ، ثَقْفاً وثَقَفاً وثَقافَةً: صارَ حاذِقاً خَفِيفاً فَطِناً، فهو ثِقْفٌ... وثَقِفهُ، كسَمعَه: صادَفَه، أو أخَذَه، أو ظَفرَ به، أو أدْرَكَهُ... "، "ويقال: ثقِفْت كذا إذا أدركتَه ببصرك لحذق في النظر، ثم يتجوز به فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة... " [17]

ومن خلال معاني هذه الأفعال نلاحظ أن الفعل (وجد) يتصرف في معاني (الحزن، والغضب، والغنى، والعثور على الشيء)، فهو يتعلق بما يجده الإنسان في نفسه من حزن وغضب، وما يعثر عليه خارج نفسه من مدركات محسوسة، كوجوده للأشياء، وأما الفعل (ثقف) فيستعمل في الأصل فيما يدركه الإنسان بذكائه وفطنته، ويستعمل في عموم معنى الإدراك، فبين الفعلين (وجد، وثقف) عموم من ناحية (الإدراك)، وخصوص من ناحية (طريقة الإدراك)، وهذا ما سيتضح بعد الوقوف على موقع استعمال كل منهما في سياقه.

ب ـ سياق الآيتين: نجد في سياق الآية الأولى أن الله سبحانه وتعالى جعل الامتناع عن الهجرة " عَلَامَةً عَلَى كُفْرِ الْمُتَظَاهِرِينَ بِالْإِسْلَامِ، حَتَّى لَا يَعُودَ بَيْنَهُمُ الِاخْتِلَافُ فِي شَأْنِهِمْ، وَهِيَ عَلَامَةٌ بَيِّنَةٌ، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ النِّفَاقِ شَيْءٌ مَسْتُورٌ إِلَّا نِفَاقَ مُنَافِقِي الْمَدِينَةِ.... (فَإِنْ تَوَلَّوْا) أَيْ أَعْرَضُوا عَنِ الْمُهَاجَرَةِ وَلَمْ يَتَقَبَّلُوهُ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ... "[18] والوجود المقصود في الآية متعلق بوجود من تحققت فيه العلامة البينة (الامتناع من الهجرة)، فمعرفة هؤلاء لا تحتاج إلى فطنة وذكاء وحذق، فأمرهم واضح بين، لذلك عبر القرآن الكريم عن العثور عليهم بلفظة (وجدتموهم) التي تعني مطلق الإدراك.

وأما في الآية الثانية فهي تتحدث عن قوم آخرين وهم " قوم من بني أسد وغطفان، كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى

قومهم كفروا ونكثوا عهودهم (كُلَّما رُدُّوا إلى الْفِتْنَةِ) كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين (أُرْكِسُوا فِيها) قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه، وكانوا شراً فيها من كل عدوّ..."(19)

فالفعل (ثقف) جاء في سياق الحديث عن قوم يُخْفُون ما لا يُظْهِرون، ومعرفتهم تحتاج إلى فطنة وذكاء وخبرة بأحوال الناس، وهذا يتناسب مع معنى الحذق والفطنة المستفاد من الفعل ثقف، إضافة على ذلك أن معنى ثقف كما فسره الزمخشري يعني في حالة قهر وغلبة، أي في حالة انكشفوا فيها وهم يقاتلون في صفوف الأعداء، لا في حالة السلم، لأن النبي ﷺ لم يكن يتعرض للمنافقين بالقتل والتشنيع رغم وجودهم بين المؤمنين.

فإيثار الفعل (ثقف) في هذا السياق حقق معنى دقيقا، وهو التمكن والإدراك المبني على حذق وفطنة، فنلاحظ أن الفعلين (وجد، وثقف) استعمل كل واحد منهما في ما هو أليق به لتأدية المعنى الخاص به، وإن اشتركا في أصل المعنى.

4. خاتمة:

نلاحظ بعد استعراض هذه الأمثلة المتنوعة للإبدال (حروف المعاني، الأسماء، الأفعال) أن الإبدال ظاهرة أسلوبية قرآنية، له وجوه متعددة، قد يساعدنا .وبكل يقين .على استحداث منهج جديد لتعليم اللغة العربية، أو يستعان به في دروسها، ذلك أن الإبدال يقدم لنا دروسا متنوعة في عدة مجالات، نذكر منها:

أ. .المعجمية: فالإبدال بين الكلمات ذات المعنى المتقارب، يدفعنا للبحث عن المعنى العميق للألفاظ، والوقوف على الفروق اللغوية بينها، كالفرق بين لفظتي (غلام . وولد)، و (حية .وثعبان) و (انفجرت .وانبجست)... وبالتالي نكون قد بحثنا في معاني جملة كبيرة من الألفاظ.

ب. النحو والصرف: فالإبدال بين حروف الجر وحروف العطف مثلا، يوقفنا على معرفة المعاني الدقيقة للحروف، كالفرق بين معاني (الواو، وثم) من خلال أثرهما الدلالي، وكذلك الفرق بين دلالة صيغ الاسمين (ساحر وسحَّار)، والفرق بين المؤنث والمذكر والتعريف والتنكير وغير ذلك مما هو من موضوعات الإبدال.

جـ ـ الدلالة: فإذا كان السياق أهم مستوى في الفهم الدلالي للنصوص، فإن أسلوب الإبدال يعرض ذلك في صورة متقنة محكمة، وذلك من خلال الترابط المكين بين الحرف والكلمة وسياقاتهما المختلفة كـ (سياق الآية ـ سياق الموضوع ـ سياق السورة ـ سياق الرتبة . (ترتيب السور).سياق الحدث (سبب النزول) سياق المكان والزمان (المكي والمدني)... الخ)، فأسلوب الإبدال إذا يقدم لنا منهجا متكاملا في الدراسات السياقية. وكما قال: الدكتور أبو موسى: " والقصص والحوادث التي تتكرر وتتكرر معها عناصر كثيرة في الأسلوب بينهما فروق، ترتبط بالسياق ارتباطا بالغ الدقة والرفاهة، والكشف عنه يحتاج إلى مهارة ووعي، وإحاطة شاملة، وليس هناك أدخل في باب البلاغة العالية من مثل هذه البحوث... [20]

د ـ البلاغة: فإذا كانت البلاغة تعني مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإن تمام المطابقة لن يظهر إلا في النظم القرآني المعجز، وأسلوب الإبدال يسهل علينا إدراك ذلك من خلال العرض التقابلي بين آيتين متفقتين في النظم كليا، ومختلفتين في جزئية واحدة (حرف /كلمة)، لنلحظ بعد البحث والدراسة والمقارنة ذلك التطابق التام والعجيب بين كل حرف/كلمة، والموضوع والسياق.

هـ ـ تعتبر الآيات التي تتضمن هذا الأسلوب نماذج جاهزة للدراسة والبحث، تتسم بالسهولة واليسر والاقتصاد، فاستعراض آيتين أمام الطالب لا تكلفه عناء حفظ نموذجين، لأن الآيتين تعتبران نصا واحدا، لا تختلفان إلا في حرف أو كلمة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن صورة ذلك الاختلاف واضحة جلية، فهي نقطة ارتكازية . إن صح التعبير ـ في نص الآية، تساعد الطالب على الاهتمام بالموضوع بشكل كبير، دون أن يشعر بالتكلف.

و ـ وهناك فوائد مختلفة لفتح أفق الدراسة في هذا الموضوع، فوائد تتعلق بتربية الحس اللغوي والبلاغي لدى الطالب، وفوائد تتعلق بفهم الخطاب القرآني وما يتضمنه من قيم وأحكام ولطائف، ذلك كله يدعو إلى الإقبال على القرآن الكريم تعبدا ودراسة وحفظا.

مراجع البحث وإحالاته:.

(1) . البرهان في علوم القرآن ، لأبي عبد الله بدر الدين الزركشي (794هـ) ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر ، ط/1، 1957م. ج/1 ، ص : 112.

(2) . الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1349هـ،1974م).ج/3 ، ص : 3،4.

(3) . معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) ، جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان ، ط/1 ، 1408 هـ - 1988 م ، ج1 ، ص : 103.

(4) . البرهان في متشابه القرآن للكرماني ، ت : د . أحمد عز الدين خلف الله (دار الوفاء ، مصر، ط4 :2009 م). ص : 63.

(5) . فنون الأفنان لابن الجوزي ، ت . د . حسن ضياء الدين عتر(دار البشائر، بيروت ، ط1، سنة: 1987 م). ص: 420.

(6) . درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ، تحقيق د/ محمد مصطفى آيدين ، معهد البحوث العلمية بمكة المكرمة ، ط/1 ،2001م. ج/1 ، ص : 11.

(7) . ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ، لابن الزبير الغرناطي (708هـ)، ت : عبد الغني محمد علي الفاسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت. ج/1 ، ص : 10.

(8) . كشف المعاني في المتشابه من المثاني ، لبدر الدين بن جماعة (733هـ)، ت: د/عبد الجواد خلف ، دار الوفاء المنصورة ، ط/1 ،1410هـ-1990م.، ص : 4.

(9) . لسان العرب ، لابن منظور(711هـ) ، دار صادر بيروت ، ط/3 (1414هـ،1997م). ج/11 ، ص:48.

(10) . المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (502هـ) ، ت/صفوان عدنان الداودي ، دار القلم دمشق ، (1412هـ،1991م) . ص: 111.

(11) . دلالات التراكيب ، دراسة بلاغية ، د/محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، (ط/2، 1408هـ،1987م). ص : 347.

(12) . ينظر : درة التنزيل ، ص: 299 والبرهان في متشابه القرآن ، ص : 79وملاك التأويل ج/1 ، ص : 52.

(13) . ينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، لجار الله الزمخشري (538هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط/3 ،1407هـ. ج/1 ، ص : 381 ، و: مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير لأبي

عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط/3 ،1420.

(14) . المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ، ص : 458/457.

(15) . التحرير والتنوير ، للطاهر بن عاشور (1383هـ) ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1984م. ج/5 ، ص : 143.

(16) . المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي (911هـ) ، ت: فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط/1 ، 1418هـ 1998م. ج/2 ، ص : 260.

(17) . القاموس المحيط ، للفيروزآبادي (817هـ) ، ت: محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، لبنان ، ط/8 ، 2005م. ص : 795.

(18) . التحرير والتنوير ، ج/5 ، ص : 152.

(19) . الكشاف ، ج/1 ، ص : 548 .

(20) . دلالة التراكيب ، ص : 348.